الفصـــل العاشـــر
أوباما، أكبر منوِّم مغناطيسي في العالم،!

إيحاءاته تخدير خارق القدرة للأمتين العربية والإسلامية أنامنا بالكلام المعسول فقط ونال نوبل لأجل ذلك، يطلب الغفران والنسيان لماضٍ نعيشه واقعًا كل يوم، أعطى كل شيء بلا أي شيء، المهم:من أجل أن يزحف العرب للتطبيع مع إسرائيل!

إذا كان الكاهن الأكبر في مصر الفرعونية، أمحوتب أبو الطب المصري القديم، قد استخدم هذا التنويم المغناطيسي، وذلك سنة ٢٨٥٠ قبل الميلاد، حيث كان يستخدم في مدرسته الطبية ومستشفاه بمدينة "منف"، طريقة تشبه الإيحاء للوصول إلى المخزن السري أو العقل الباطن، وذلك بأن يترك مرضاه ينامون، سواءً كان نومًا طبيعيًّا، أو في أعقاب تناول النباتات المخدِّرة أو المنوِّمة، ثم يجعل الكُهَّان يرددون على أسماع هؤلاء المرضى النائمين عبارات إيحائية تتسلَّل إلى أحلامهم، وتلعب دورًا إيحائيًّا في حفزهم على التعافي والشفاء من عِلَلِهم وأمراضهم التي يعانون ويتألمون منها، ويرغبون في العلاج والخلاص من متاعبها فإنه بالتزامن مع الزيارة التي قام بها كاهن القوة الأعظم، الوحيدة المتجبرة في البشر، والتي تُكيل بألف مكيال ومكيال الرئيس الأمريكي «باراك أوباما» إلى منطقة الشرق الأوسط، وإلقاء خطاب وجَّهه إلى العالم الإسلامي من جامعة القاهرة، من قلب العاصمة المصرية القاهرة، فما أشبهَ اليومَ بالبارحة؟!

إذ اتخذ أوباما من جامعة القاهرة مكانًا ليجعل كهنته يردِّدون مثله، على أسماع العالَمَين المريضين العربي والإسلامي عبارات إيحائية تتسلل إلى أحلام الأمتين، لتلعب دورًا إيحائيًّا في حفزهم على التعافي من آثار الضرب المبرح على ظهر الأمّتين، والشفاء من علل الكيل بمكيالين في كل قضاياهما مع الغرب.

إذ إنه قال كلامًا معسولًا صدَّقه البعض، وراح اللعاب يسيل إلى شروق شمس العدل من الغرب، تلك الشمس التي جاءت دومًا بالاستعمار والمستعمرين، الذين نهبوا خيرات الأمم، والمستشرقين الذي كذبوا على أممهم أولًا، فصار كذبهم دستورًا، يتلوه الغرب ليلًا ونهارًا، فاستحق أوباما عن ترانيمه وإيحاءاته أن ينال جائزة نوبل للسلام، لمجرد الكلام.

إنه ترديد الإيحاءات أشبه بالإيحاءات التي يبثها المنوِّمُ المغناطيسي، في عقل المنوَّم مغناطيسيًّا، فما أشبهَ اليوم بالبارحة!، وما أقصرَ الأيام من أمحوتب إلى أوباما!

وقد رصد المحلِّلون اللهجةَ الجديدة لواشنطن، في التعامل مع القضايا الرئيسية بالمنطقة، وعلى رأسها التهديد، الذي تمثله "إسرائيل"، لمحاولة اجتذاب شعوب العالم الإسلامي، فتحدث أوباما في خطابه عن عدم نية إدارته تجاهل الاختلافات الجوهرية بين الثقافات الخاصة بكل شعب من شعوب المنطقة، وأن واشنطن لن تعمل على فرض قيمها الثقافية أو أسلوب حياتها على الدول الأخرى.

وسعى أوباما للتأكيد على وجود خطرٍ ما، سيهدد الولايات المتحدة لو استمرت في الجهود التي بدأتها حكومات أمريكية سابقة، وتتعلق بفرض قيم معينة، حتى لو كانت تتعلق بالديمقراطية، أو الحريات أو الحقوق الفردية، على شعوب دول أخرى لها تاريخ مختلف، وخصوصية ثقافية مختلفة.

لكن الأهمّ هو ما صدر عن الرئيس «باراك أوباما» من علاقات جديدة مع "إسرائيل" تخدم مصالح الطرفين بالمنطقة، ومن وعود بأنه ينوي صياغة علاقات جديدة مع "إسرائيل" إعتبارًا من جولته في الشرق الأوسط، على الرغم من حقيقة أن الأهداف الاستراتيجية الرئيسة، لكل من واشنطن وتل أبيب، لن يمكن المساس بها لأنها مرتبطة بطبيعة الدولتين وجذور العلاقات المشتركة بينهما.

ومن الواضح أن الرئيس أوباما الذي أعلن، ولازال يؤكد في العديد من المناسبات التزامه المطلق بأمن دولة "إسرائيل" وضمان تفوّقها العسكري المستمر على جيرانها من الدول العربية، لا يريد أن يغمض عينيه في الوقت نفسه عن خطورة الممارسات، التي تقوم بها "إسرائيل" في المنطقة، وتأثيرها على العلاقات الاستراتيجية المهمة، التي تربط الدول العربية والإسلامية بالولايات المتحدة.

وكثيرًا ما حذَّر أوباما من أن الضوء الأخضر الأمريكي لكل التحركات والمواقف "الإسرائيلية"، لن يستمر خلال فترة حكم إدارته بنفس الوتيرة، التي حدثت خلال حكم الإدارات الأمريكية صلبة، معتبرًا أن هذا سيضر بالأهداف الكبرى المشتركة للطرفين.

ويتحرك أوباما في هذا الاتجاه انطلاقًا من شعور حقيقي بالصداقة والولاء لدولة "إسرائيل"، حيث يقول بصورة غير مباشرة إن واشنطن عليها أن تمارس دور الوصاية على السياسات "الإسرائيلية" لخدمة "إسرائيل" في نهاية المطاف، ومنعها من التمادي في سياسات معينة قد تؤدي لعواقب لا تُحمد.

وأعرب أوباما عن استيائه من الأصوات التي تدعو إلى موافقة السياسات "الإسرائيلية"، حتى لو كانت تسير بالمنطقة نحو أوضاع سلبية، وتضر بشكل كبير ليس فقط بمصالح "إسرائيل" في المنطقة وإنما بالمصالح الأمريكية كذلك.

وكان العالم كله يظن الزيارة التي قام بها أوباما إلى المنطقة هي بداية التغير الحقيقي في أسلوب تعاطي الإدارة الأمريكية مع الأوضاع في المنطقة، والتركيز على أسلوب العمل الدبلوماسي الجاد، والذي كانت الإدارة الأمريكية السابقة قد همَّشته إلى أبعد حد ممكن، بتركيزها على الخيارين العسكري والأمني، حتى في التعامل مع القضايا ذات الطابع الدبلوماسي، لكن خاب أمل الجميع؛ فقد قال أوباما كلامًا، وظلَّ كما هو مجردَ كلام في كلام.

ويُرجع المحللون رفضَ إدارة بوش السابقة تبني المنهج الدبلوماسي في التعامل مع قضايا الشرق الأوسط إلى القرار الذي اتخذته هذه الإدارةُ بصورة ضمنية، بمباركة كل سياسات "إسرائيل"، ودعمها بغض النظر عن تداعياتها، وتأثيراتها على المدى القريب والبعيد، رغم أن هناك ما يسمى بالمنهج الدبلوماسي لإدارة أوباما والتغطية على سياسات "إسرائيل".

ويرى الرئيس أوباما نفسه أنه لا يريد التخلي عن أدواته الدبلوماسية في التعاطي مع قضايا الشرق الأوسط، حتى وإن اضطره ذلك إلى توجيه بعض الانتقادات للسياسات التي تتبعها "إسرائيل" في المنطقة، لكن هذا سيستلزم منه أن يؤكِّد بالأدلة القاطعة كل فترة التزامه المطلق بأمن "إسرائيل" وتفوّقها الدبلوماسي.

وجاءت زيارة أوباما لمصر، والإدلاء بخطاب حاول فيه تحسين صورة الولايات المتحدة في العالم الإسلامي، بعد أن تضررت تمامًا بفعل الحرب، على جميع الإسلاميين باسم (مكافحة الإرهاب)، وكذلك غزو العراق وأفغانستان، فجاءت هذه الزيارة بعد انتقادات صريحة، وجهها الرئيس الأمريكي لاستمرار بناء المستعمرات في الأرض العربية المحتلة من جانب "إسرائيل".

وقد رفضت حكومة رئيس الوزراء "الإسرائيلي" بنيامين نتنياهو، دعوات الإدارة الأمريكية المتكررة بالتوقف عن توسيع المستوطنات في الضفّة الغربية، كما أنها لم تلتزم علانيةً حتى الآن بقبول حل إقامة دولتين.

من هنا يمكن رؤية كهانة أوباما خلال زيارته لمصر، في سياقها الطبيعي للقيام بدور المنوِّم المغناطيسي للأمتين العربية والإسلامية، فالوسيط الأمريكي يريد أن يمارس دورًا إيحائيًّا تنويميًّا في تهدئة مخاوف الدول العربية من نوايا "إسرائيل" ووجَّه الدعوات والمناشدات

لحكومة "إسرائيل" من أجل إبداء مرونة ورغبة في تحقيق السلام، حتى لو استمر في الواقع التعنُّت "الإسرائيلي" والرفض لكل هذه الدعوات.

والخوف قد تأصَّل في قلوب وعقول المراقبين، بالأمَّتين العربية والإسلامية من نجاح الرئيس أوباما - بالفعل الآن - في إحداث حالة من التنويم المغناطيسي، أو فقدان الوعي لشعوب المنطقة العربية، بينما تواصل الحكومة "الإسرائيلية" سياساتها العدوانية في الأراضي المحتلة، في ظل رفضها المعلن لحق العودة للاجئين الفلسطينيين، وإصرارها على تصعيد وتيرة تهويد القدس، استعدادًا لهدم المسجد الأقصى في يوم ما، وزيادة رقعة الأراضي المغتصبة، والإحاطة الكاملة بالمسجد الأقصى عن طريق الحفريات في باطن الأرض تحته، تمهيدًا للانقضاض عليه.

إن الكلمات المعسولة التي صدرت على لسان الرئيس الأمريكي، عقب نجاحه في الانتخابات، والتي ازدادت قوة بعد خطابه في القاهرة للعالم الإسلامي، ودعواته لحكومة "إسرائيل" من أجل الدخول في مفاوضات جادة لإحلال السلام بالشرق الأوسط مصحوبة بمجرد تحذيرات من خطورة تصعيد التوتر في المنطقة على أمن "إسرائيل" والمصالح الأمريكية.

إن أوباما، ذلك الرئيس الأمريكي الكاهن، تلميذ أمحوتب، يؤكد لـ "إسرائيل" أنه في غياب التفاوض مع الجانب الفلسطيني، فإن التهديدات المحدقة بـ "إسرائيل" ستتفاقم، وستستمر الأزمات التي تحيط بها؛ لأنه يعلم أن توازن القوى داخل أمريكا يمنعه من توجيه أي ضغط فعلي على تل أبيب، وبالتالي فإن البديل هو الكلام المعسول لتخدير العالمين العربي والإسلامي.

وأشار المراقبون مع نهاية السنة الأولى من حكم أوباما، إلى أنه حتى لو كان راغبًا في ممارسة ضغط دبلوماسي معين على "إسرائيل" فإنما لمحاولة تأمينها في النهاية، وضمان مصالحها الكبرى، وإبعاد شبح التهديدات عنها، وليس لأجل تنظيف الوجه الأمريكي القبيح في نظر العرب والمسلمين، وفي الوقت ذاته فإن العديد من القوى الحقيقية داخل الكونجرس لن تسمح له بأن يتخطى هذا الضغطَ الدبلوماسي على إسرائيل، إلا بما يحقق درجة تخدير معينة للعرب والمسلمين،

وقالت عضو الكونجرس عن الحزب الديمقراطي شيلي بيركلي: (نحن عندما نضغط على إسرائيل دبلوماسيًّا، فإننا نركز اهتمامنا في الاتجاه الخطأ؛ لأن الأَولى بالولايات المتحدة، أن تزيد ضغطها على إيران، ومنعها من الطموح النووي، والضغط كذلك على الحكومات العربية في الشرق الأوسط التي تصر على انتهاك حقوق الإنسان).

وبدأت بالفعل أصوات تتعالى من داخل الكونجرس، لتغيير مفهوم (المستوطنة)، وإعادة تعريفها لحمل إدارة أوباما على وقف ضغطها على تل أبيب، فيما يتعلق بقضية توسيع الأراضي المغتصبة، بينما تدعو أصوات أخرى إلى أن يدرك أوباما أهمية عدم التضييق الجدّي على "إسرائيل"؛ لتتمكن من فرض كل ما تريد فرضه على أرض الواقع، قبل تنفيذ حل الدولتين، إن كانت الظروف ستسمح لهذا الحل بأن يرى النور.

ورغم هذه الضغوط وغيرها تؤمن إدارة أوباما، بأن توجيه انتقادات لـ "إسرائيل"، حتى وإن كانت مجرد كلمات خالية من أي تحذير حقيقي، قد تؤدي بالدول العربية إلى أن تشعر بحالة من الأمان، والرضا عن الجانب الأمريكي، وهو ما يخدم مصالح واشنطن في المنطقة في المرحلة المقبلة.

ومن أجل استمرار نجاح هذا السيناريو المنوِّم مغناطيسيًّا، للعرب والمسلمين، لن تمتنع تل أبيب عن إبداء دهشتها واستيائها من الانتقادات الموجَّهة لها من الإدارة الأمريكية، بينما هي في الحقيقة تواصل سياساتها في المنطقة، وربما بصورة أكثر قوة.

وأراد الرئيس أوباما من جولته القادمة في الشرق الأوسط وزيارته إلى مصر وخطابه إلى العالم الإسلامي أن يكون مقدمةً لحمل الدول العربية كلها على تطبيع العلاقات مع "إسرائيل" حتى وإن كان قد تجنَّب الإشارة إلى هذه النقطة بشكل مباشر في خطابه.

وقال (أرون ديفيد ميلر) المفاوض الأمريكي السابق المتخصِّص في شئون قضايا الشرق الأوسط: إن أوباما حصل بالفعل على تعاطف العرب ونجح في إقناع بعضهم بمبدأ التطبيع مع "إسرائيل"، فجعله ذلك في موقف أكثر قوة أمام خصومه السياسيين داخل الكونجرس.

وفي رد شعبي إسلامي عارم على خطاب الكاهن الأكبر «أوباما» تعالت أصوات في العالم الإسلامي بضرورة أن تكون هنالك حملة شعبية إسلامية على مستوى العالم للحظات الضائعة من عمر أمتنا، وهي تنتظر المنن المزعومة التي تدعيها اللوبيات الإعلامية، وتروِّج لها في كل الوسائل الإعلامية أن العالم الإسلامي ينتظرها بفارغ الصبر.

إن هذه الخدعة الأوبامية للأمة إنما هي إهانة واستهانة مبطَّنة لنا، ولديننا الحنيف، وهي أمانة تقع على كل عالِم وكل من يملك وسيلة إعلامية، وكل كاتب يتبنى بحب ومصداقية حال أمته، إذ لابد من أن مجابهة تلك الإهانة بقوة وبحزم.

فنحن أمة أعزها الله بالإسلام، فإن ابتغينا العزة بغير الإسلام أذلَّنا الله.وعلينا التفهم والاستيقاظ من تنويم أوباما، ونقول له بصوت واحد: يا أوباما مهما بلغتَ بنا من التنويم، فأنت مازلت تحبو أنت وأمتك أمام أمحوتب، (فلا تبع الماء في حارة السقايين)، أنت وربيبتك

إسرائيل بنت الصهيونية، وبنت الحكام الخائنين في الأمة، وحتمًا سيجيء اليوم الذي نتحاسب فيه، وإن غدًا لناظره قريب.

لعبة الإلهاء والاحتواء !

كان الآباء والأمهات قديمًا إذا أرادوا أن يُسكِتوا طفلًا يبكي، أو يتعلق بشيء يريده، يقولون له: "شايف العصفورة"، ويشيرون بأيديهم إلى اتجاهات مختلفة فيتَّبع الطفل الغرير إشارات أصابعهم علَّه يرى العصفورة، وبعد دقائق ينسى الطفل موضوعه الأصلى، فيحتويه الكبار فى أحضانهم، أو يُجلسونه فى حجْرهم، أو يسيرون به إلى حيث يريدون.

وكثيرون منا يرون أنها لعبة بريئة، وأنها تعتمد على قانون علمي أكيد، وهو أن الطفل يَسْهُل تشتيت أو جذب انتباهه بسرعة وبسهولة، والبعض الآخر يدَّعي أن للعبة استخدامات طبيةً مفيدة، خاصة في الماضي قبل شيوع استخدام البنج فى عمليات الختان (الطهور)، و(الخصاء) فى عصور الأغوات، وفى خلع الأسنان أو العمليات الجراحية. حيث كانت هي الوسيلة الوحيدة لتشتيت الانتباه وتخفيف الشعور بالألم، أو على الأقل التخلُّص من بكاء الطفل المؤذي له وللمحيطين به – على حد زعمهم.

ولم يتبيَّن أحد ما هي العلاقة بين لعبة "شايف العصفورة" وبين عادة "دق العصافير"، على جانبي الجبهة أمام الأذنين، تلك العادة التى كانت منتشرة في قرى وصعيد مصر إلى عهد قريب نسبيًّا، ولكن الشيء المؤكد الآن هو احتمال أن أهل الصعيد الكبار كانوا يريدون أن ينشغل الصعيدي الصغير حامل العصافير أمام أذنيه بمحاولة رؤية العصافير طول الوقت "دون جدوى"، بدلًا من أن يتعبوا أنفسهم بالإشارة بأيديهم إليه لإلهائه واحتوائه، يعني يلهي نفسه بنفسه، بأن تكون (عصافيره منه فيه)، ويبدو أن هذا الهدف كان يتحقق بفاعلية عالية،

بدليل أن أصحاب العصافير كان يُضرب بهم المثل فى الغفلة والسذاجة، والقابلية للاستهواء والاحتواء، وربما يكون هذا هو السببَ فى إقلاع الكثيرين عن هذه العادة.

سـرّ اللعبة،!

وانظروا جيدًا حولكم – أعزَّتي القرّاء – ستشاهدون العصافير تملأ صفحات الجرائد وشاشات التليفزيون والكومبيوتر، وكل عصفورة تحمل عنوانًا مثيرًا، فهذه عصفورة الختان، وتلك عصفورة النقاب، تليها عصفورة الحجاب، يتبعها عصفورة العرض العسكرى، أو شبه العسكرى أو الرياضي لطلاب جامعة الأزهر، المصابين بالأنيميا وفيروس سي، يسبقها عصفورة جواز التدخين فى نهار رمضان.

وهكذا تملأ زقزقات العصافير آذاننا، وتتَّبعها أعيننا فى كل مكان، فلا ندري أين نحن؟! ولماذا جئنا إلى هنا،؟! وأين نذهب،؟! وماذا نريد،؟!

إنها عملية إلهاء، تنويم مغناطيسي، محلِّي لا أمحوتب قائدها، ولا أوباما صاحبها، بل هي منتَج محلي، وعربي مائة في المائة.

واعلموا، أن لعبة الإلهاء لها أصول ومراحل، فهي تبدأ بافتراض الغفلة والسذاجة لدى الضحية، ثم تتطور إلى محاولة جذب انتباهه عن مشكلته الأصلية، إلى شيء أقل أهمية لكنه أكثر إثارة.

وبما أن الضحية يفُترض فيه ضعف الذاكرة وتشتُّت الانتباه، وعدم وضوح واستقرار الهدف الأصلي، لذلك يتوقع القائمون على اللعبة أنه ستُنسى بوسيلة الإلهاء، وإذا لم يتأكد هذا الاحتمال، فإن الضحية تحتاج إلى عملية استهواء، وهي أكثر تعقيدًا وإبهارًا من الإلهاء، فهي تستدعي مقالات وندوات ولقاءات تليفزيونية، ومنتديات على الإنترنت ورسائل على البريد الإلكتروني.

وإذا لم تفلح عملية الاستهواء يتم اللجوء إلى الاستلاب، أو الإغواء.وفى الاستلاب يحتاج أصحاب اللعبة إلى شخصيات كاريزمية، لها صفة السحر على الجماهير، وقد تكون هذه الشخصيات من رجال السياسة أو رجال الدين أو رجال الإعلام أو نجوم الفن أو لاعبي الكرة، يقومون بتمرير اللعبة لدى الضحايا المستهدَفين، وهم فى حالة بين النوم واليقظة (أشبه ما تكون بعملية التنويم المغناطيسى)، وربما يحتاج الأمر إلى مهارة مخرجي التليفزيون، أو منظمي الندوات أو مديري المنتديات، لخلق جوٍّ أسطوريٍّ أو شبه أسطوري، يساعد الشخصيات الكاريزمية على إتمام عملية الاستلاب، دون أن يشعر الضحايا أو يتألموا أو ينتبهوا.

أما الإغواء، فهو عملية تحتاج لرشوة الضحايا، والرشوة هنا إما أن تكون مالية؛ كمكافآت أو إكراميات أو علاوات أو انتدابات أو سفريات أو وظيفية؛ كالتعيينات أو الترقيات، أو اجتماعية؛ كتلميعات وصناعة نجوم، أو سياسية؛ كمناصب حزبية أو تسهيلات انتخابية، أو دينية؛ كوعد بالجنة لمن يسمع كلام أولي الأمر، ويطيع أوامرهم دون سؤال، أو جنسية؛ كفيديو وكليبات على فضائيات عارية أو شبه عارية.

وإذا نجحت كل الخطوات السابقة تكون النتيجة النهائية هي: الاحتواء، حيث يجلس الضحايا في حجر القائمين على اللعبة، أو يرتمون فى أحضانهم أو يغطُّون في نوم عميق، بينما تتم عمليات أخرى بلا مقاومة أو ألم، أو ينظر الضحايا إلى العصافير من حولهم أو من فوقهم أو من تحتهم فى دهشة وانبهار، حتى تتم عملية الختان أو الخصاء أو الاغتصاب في سهولة ويسر على الطرفين.

من المصرية إلى العالمية وبالعكس!

وقد يعتقد البعض، أن لعبة "شايف العصفورة؟" هي لعبة مصرية في الأساس، خاصة أنها نشأت وترعرعت في البيئة المصرية، ولها شاهد لا يحتاج للكثير من الأدلة العلمية، ألا وهو عادة (دق العصافير)، والتي أتشرف بالشهادة بأنني رأيتها بعيني أمام آذان عدد غير قليل، من قاطني قرى وجه بحري والصعيد، ولم تختفِ إلا منذ سنوات قليلة، حين أصبح البعض يتساءل في مواقف الإلهاء والاستهواء مستنكرًا ومحتجًّا: هو أنت فاكرني داقق عصافير؟!!!

ثم استبدلت العصافير بعد ذلك برقم ١١١، يُكتب في نفس المكان أمام الأذنين،، ولست أعرف السر في اختيار كتابة رقم ١ ثلاث مرات، إلا أن أحد المعارضين المشاغبين الظرفاء، الذي كان قد خرج لتوِّه من السجن، قال مازحًا: إن هذه الخطوط الثلاثة، تمثل الملك أو الرئيس، وابنه ولي العهد، ثم زوجته، ولم يأخذ الناس هذا الأمر حتى الآن على محمل الجد، وآثروا أن يتركوا الأمر مفتوحًا لمزيد من الاجتهادات العلمية الأكثر دقة.

ولكن يبدو أن اللعبة أصبحت عالميةً؛ فقد رأينا "بوش" حين همَّ أن يغزو أفغانستان حاول أن يرينا عصفورة بن لادن وطالبان، وحين نوى غزو العراق أرانا عصفورة صدَّام وعصفورة أسلحة الدمار الشامل فى العراق، وحين انفتحت شهيته لغزو السودان لوَّح بمشكلة دارفور، وهو كان يذكِّرنا بالحاوي الذي يحمل في جرابه الكثيرَ من العجائب، يخرجها واحدًا بعد الآخر، وهو يحرِّك يديه حركات سريعة تشتِّت انتباهَ المشاهدين، حتى تتم الخدعة أو اللعبة بمهارة.

وهذا كان يذكِّرنا، مازال يذكِّرنا طبعًا بلاعبي الثلاث ورقات، الذين يحركون الورق بخفة بين أيديهم، ثم يُظهرون الورقة التي يريدونها في الوقت المناسب، فيصدقهم الرائي بناءً على براعتهم وسرعتهم في خلط الأوراق.

والغريب أن هذه اللعبة رغم انتشارها علميًّا على يد «بوش» وتابعه «بلير»، ورغم رحيلهما، إلا أن «أوباما» أخذ يمارسها أيضًا، والعجيب حقًّا أنها كثيرًا ما تُمارس مع العرب بوجه خاص، فكلما أرادت أمريكا أو إسرائيل عمل شيء، قاموا بتغطيته بأي عصفورة ننظر إليها، حتى يتموا هذا العمل في سهولة ويسر وبأقل قدر من الإزعاج لنا ولهم.

هل أكلت البرتقالة؟!

ويذكر صديق موقفًا حدث له منذ سنوات، حيث كان يتدرب على طريقة العلاج بالتنويم المغناطيسي على أيدي معالج نفسي أمريكي، وكان يحضر التدريب معه عددٌ من المعالجين النفسيين بينهم مصريون وعرب، وبدأ المعالِج المدرِّب يطلب من الحضور عمل بعض أشياء، ليست لها علاقةٌ مباشرة بالموضوع، وكان صديقي يعرف من خبرته السابقة كمعالج نفسي أن المقصود منها تشتيت الانتباه لتقليل الدفاعات النفسية، وتسهيل اختراق الجهاز النفسي وتوصيل الرسائل المطلوبة إليه.

ومن هذه الأشياء أنه طلب أن نتخيل، أننا نمسك برتقالة في أيدينا، ثم نقشِّر هذه البرتقالة ونأكلها ونستشعر طعمها، فاندمج المصريين والعرب في هذا الدور بشكل ملفت للنظر، مقارَنة بغيرهم من الجنسيات، ربما لأن المدرب أمريكي ينطق عن الهوى، والعجيب أن بعضهم خرج يُقسم بأغلظ الأيمان أنه استشعر فعلًا طعم البرتقالة، وبعضهم ذهب أبعد من ذلك، فجزم بأنه استشعر وجود برتقالة أخرى في يده الثانية قام بوضعها في جيبه، وهو

الأمر الذي يمكن معه إدراك كم نحن أمة قابلة للإلهاء والإيحاء والاستهواء والاستلاب، والإغواء إلى درجة الاحتواء.

غربان عبرية!

وقد عرفت إسرائيل هذه الصفة عن العرب، فتجدها تطلق في كل مرحلة عصفورًا أو بالأصح غرابًا ننشغل جميعًا بالكلام عنه، والهرولة للتباحث بشأنه، ولعل آخر هذه الغربان الميتة خارطة الطريق ثم لا تلبث أن تُطلق غربانًا أخرى.

وتتوالد الغربان في الجو ونحن ننظر إليها جميعًا، ونحاول تتبعها جميعًا حتى ننسى الموضوع الأصلي.. ويصبح تتبع الغربان ومعرفة ألوانها وأحجامها وجنسها هو الهدف، وأثناء هذا الإلهاء والاستهواء تكون إسرائيل قد حقَّقت كل مشروعاتها، التي خططت لها منذ البداية، فتغلق الملف ونفاجأ نحن باختفاء الغربان، وانسحاب المفاوض الإسرائيلي الذي أطلقها انتظارًا لدورة غرابية أخرى.

زقزقة مصرية!

وحين نتابع الصور في المشهد المصري بوجه خاص نرى بيع شركات القطاع العام بأبخس الأسعار، ونرى السكوت عن احتلال العراق وابتلاع فلسطين، ونرى تدمير لبنان وغزة أمام أعيننا، ونرى تزوير انتخابات مجلس الشعب وتزوير انتخابات اتحاد الطلاب، ونشأة اتحادات موازية تدفع للصراع الدامي بين أبنائنا الطلاب أيًّا كانت انتماءاتهم داخل الجامعات.

ونرى غرق العبَّارات، وحوادث السكة الحديد، وتعديل المادة ٧٦ من الدستور، ثم الشروع فى تعديل التعديل، بتعديل يحتاج فيما بعد إلى تعديل، ونرى البطالة والفساد والمظالم الاجتماعية، والتوحّش الأمني لسدّ الفراغ السياسي.

كل هذا يجرى ونحن نتلهَّى، أو نُستهوى أو نُستلب أو نُغوى بالعصفورة، ففوق كل حدث من هذه الأحداث كانت تطير عصافير فوق رؤسنا، ننشغل بها حتى تتم الصفقة أو العملية أو تمر الكارثة، والجميع يراهن على ضعف ذاكرتنا وقابليتنا العالية لتشتت الانتباه والاستهواء وأحيانًا الاستلاب.

الترفيه غير البريء، وترسيخ الوضع الراهن،!

وعمليات الإلهاء والاستهواء والاستلاب والإغواء والاحتواء، لا تحتاج في كل المرَّات إلى فرقعات ساخنة، كقضية النقاب أو الحجاب أو الإساءة للرسول بالرسوم الكاريكاتورية، أو الاستعراض الرياضي أو العسكري أو شبه العسكري لطلاب الأزهر، أو التحرش الجنسي بوسط البلد في الأعياد، بل أحيانًا يتم ذلك بواسطة الإتاحة الهائلة لعدد كبير من البرامج الترفيهية، والتى تبدو محايدة وبريئة مثل مباريات كرة القدم، أو الأفلام والمسرحيات والمسلسلات والكليبات والأغاني.

وكل هذه الأشياء تخدِّر الوعي، وترسِّخ للوضع الراهن وتقتل الرغبة في التغيير الإيجابي، وتوحي بأن الحياة جميلة ومستقرة، وبأن مظاهر الرفاهية متاحة على الأقل فى التليفزيون، إضافة إلى أن ملايين البشر يقضون ملايين الساعات أمام التليفزيون، وهم في حالة استرخاء وتلقٍّ سلبيٍّ تستقبله الحواس ووسائل الإدراك ولا تتحرك بموجبه الجوارح.

وهكذا شيئًا فشيئًا يتعلم الشخص المشاهد ذلك التعامل الأحادي، حيث يرى ويسمع وليس مطلوبًا منه أن يفعل شيئًا.

ومع استمرار وطول ساعات المشاهدة يُصاب بالهمود الجسدي والفكري فينام ساعات قليلة ليصحو في حالة إعياء لا تسمح له بممارسة تفكير نقدي، أو عمل منهجي فيصبح مرة أخرى أكثر قابلية للإيحاء فالاستهواء فالاحتواء.

من الحلم البديل للطب البديل، ياقلبي لا تحزن،!

وربما يعتقد بعض الناس أن البرامج الحوارية أو الثقافية، بريئة من لعبة (شايف العصفورة)، وهذا بعيد جدًّا عن الحقيقة؛ فكثير من هذه البرامج يدفع بعصافير تخطف عقل المشاهد، الذى أدمن الاستهواء والاستلاب، ويكفي أن تتابع برامج تفسير الأحلام أو الطب البديل، لترى كيف تشغلنا هذه البرامج التافهة المضللة عن صنع أحلامنا المستقبلية وعن الطب الأصيل الذى لم نبرع فيه، حتى نبحث عن الطب البديل.

ويبدو أن التركيبة النفسية للناس أصبحت ترغب في هذا الإلهاء والاستهواء، بدليل الكثافة العالية لمشاهدي هذه البرامج، التي تقوم على الفكر الخرافي التعميمي الاختزالي المشوَّه، ويتحدَّث كثير من الناس عن أحد مفسري الأحلام العظام، فيجلسون لمتابعته عدة حلقات، وبعد فوات الأوان يجدون أنه يمارس الدجل والشعوذة متسترًا بالدين، ومتسترًا بما يسميه علم تأويل الأحلام ويدَّعي انتسابه زورًا إلى الأزهر، والأزهر منه براء.

ثم يتتبع الناس أحد مشاهير الطب البديل، وهو طبيب أو يدَّعي أنه طبيب، فيجدونه يمارس هرطقة يلبسها ثوبًا شبه علمي.. فيصف البردقوش لشخص مصاب بتضخم الطحال، ثلاثة أضعاف حجمه، ويجزم له أن الطحال سيعود لحجمه الطبيعي بتأثير البردقوش بعد أسبوعين فقط، دون أن يسأل ويتقصى عن سبب تضخم الطحال، والغريب أنه يتكلم بثقة عالية يُحسد عليها، وهي إحدى صفات الدجالين والسيكوباتيين.

والأعجب من كل هذا أن ملايين البشر يصدقونه ويتابعونه، على الرغم من وضوح دجله وشعوذته ونصبه واحتياله، ويحضر له في ندواته آلاف البشر وهم مشدوهون، وكأن على رؤسهم الطير، في حين إذا دُعي عالم موضوعي يقول الحقيقة، ويوقظ العقل لممارسة التفكير النقدي المنهجي الجادّ لا يحضر له أحد.

وقد ينصرف ذهنك إلى أن لعبة (شايف العصفورة)، تنجح فقط مع الأطفال الصغار أو مع ضعاف العقول، أو القابلين للإلهاء أو الاستهواء أو الاستلاب أو الإغواء، أيهما أسهل، ولك الحق في ذلك.

إلا أن المدهش في هذه الأيام، أن هذه اللعبة أصبحت تمارَس مع شعوب بأكملها، والمدهش أكثر أنك ترى عددًا كبيرًا من كبار المثقفين والمفكرين ورؤساء تحرير بعض الصحف يجولون بأعينهم في كل الاتجاهات بحثًا عن العصفورة المجهولة، حيث تغيب منهم وعنهم الفكرة المركزية، ويندفعون جريًا وراء العصافير وبالونات الاختبار، وتكثر الثرثرة المُمِلَّة على الفضائيات، وعلى صفحات الجرائد حول تفاصيل تافهة وهامشية، تستهلك فيها الطاقات في حين تمر الصفقات بالليل.

وربما تظن أن القلة الناجين من (شَوَفان العصفورة) من العلماء الجادين المنهجيين أصحاب العقلية النقدية هم من المحظوظين والسُّعداء فى مجتمعات تعجّ بالمتلهين والمستهوين والمستلَبين والمغوين والمحتوين، ولكن للأسف الشديد هؤلاء القلة يعانون من غربة ووحشة، وربما من نبذ واستبعاد؛ لأنهم يحاولون إيقاظ النائمين، وعلى رأي الشاعر الساخر "اللى يصحِّى الناس، يا ناس أكبر غلط !!".

ولقد فهمت في هذا السياق إعلان الروائي الكبير بهاء طاهر، توقفَه عن قراءة الصحف أو متابعة وسائل الإعلام المصرية، حفاظًا على نقاء أجوائه من العصافير والغربان.

وأكثر وأخطر ما أخشاه، أن أكون أنا وأنت عزيزي القارئ قد شاركنا في البحث عن العصفورة في وقت من الأوقات، أو ربما نكون الآن (شايفين العصفورة!)